الإسلام

مَجلة فصلية مُصَوّرة تعنى بالآثار والتراث

العدد الخامس عشر (١٩٩٣ م / ١٤١٤ هـ)

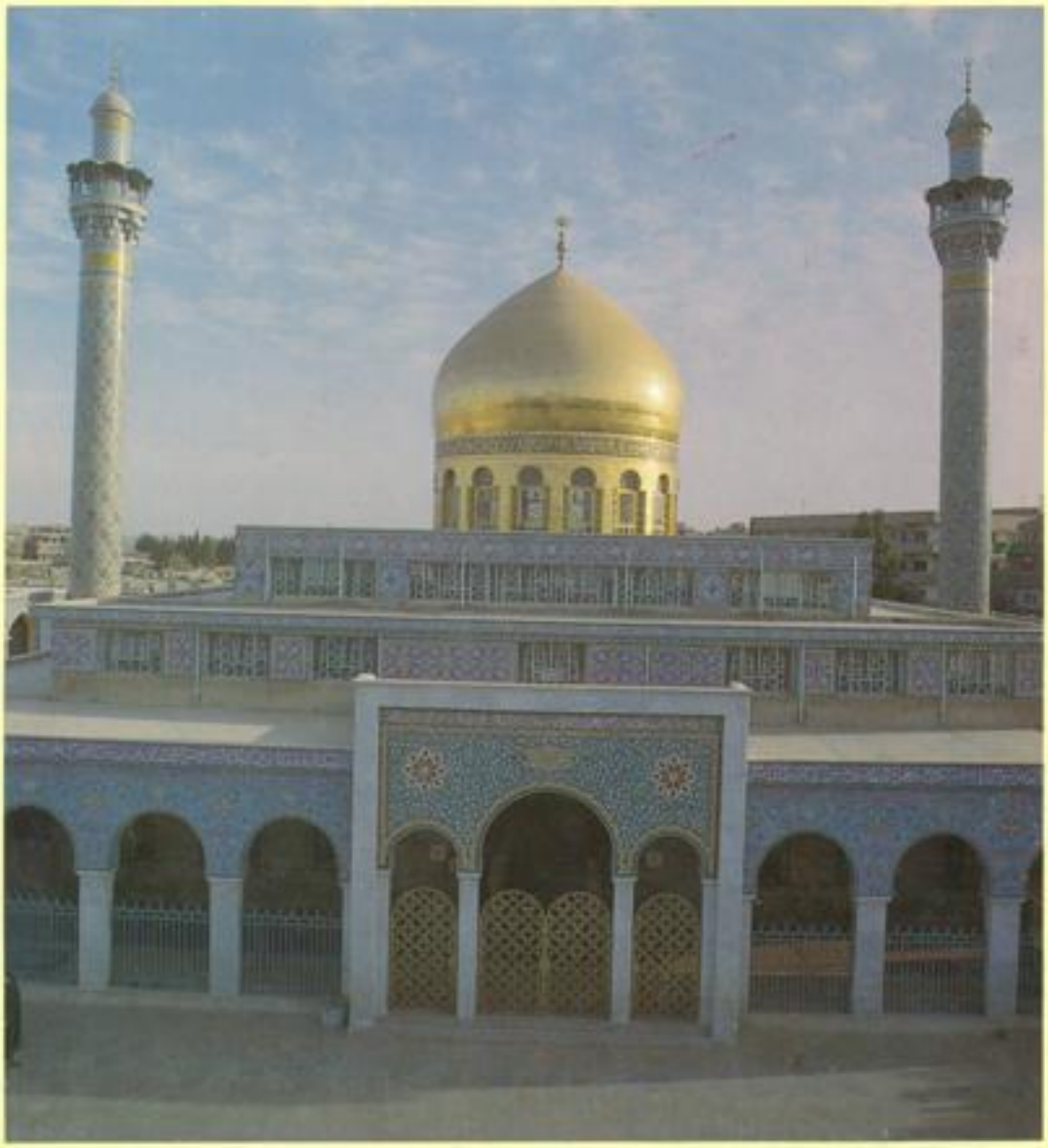

المشهد الزينبي الشريف بدمشق الشام

الانوار

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

Shiabooks.net

مؤسس

أكاديمية الكوفة

هولندة

المراسلات

KUFA ACADEMY
POSTBUS 1113
3260 AC OUD - BEYERLAND
NEDERLAND
www.aimawsem.net
www.shiaparlement.com

بغـداد
بين مقاهي الأدباء وأدباء المقاهي*

بلند الحيدري

لم يكن ثمة شيء يلفت نظر الوافدين في الأربعينات، ويثير عجبهم وإعجابهم كمنظر المقاهي المنتشرة في كل شوارع بغداد وأزقتها، وكمنظر أسواقها كسوق الشورجة الخاصّة ببيع التوابل ومؤنة البيت، وسوق الصفّارين حيث تصنع الأواني النحاسية، وسوق «السراي» التي تمتد على جانبيها دكاكين بائعي الكتب القديمة منها والحديثة، والتي تمد بنفسها إلى أسواق أخرى.

وقد وعيت أثر المقهى في حياتي وأنا في سن مبكرة، إذ كنت أهرب إليه من المدرسة مع بعض زملائي في الدراسة المتوسطة، وكان مقهانا المفضل آنذاك هو مقهى «البلدية» وباثر من كونه المقهى الوحيد الذي كنا نستمع فيه إلى أغاني أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب، وكل زبائنه كانوا على مثل هوانا في حبهم لهذه الأغاني وربما كان هو المقهى الذي استوحاه بدر شاكر السيّاب في قصيدته «أغنية قديمة» حيث يقول في مطلعها:

في المقهى المزدحم النائي . . في ذات مساء
وعيوني تنظر في تعب
في الأوجه والأيدي . . والأرجلِ واللهبِ
والساعة تهزأ بالصخب
وتدق . . سمعت ظلال غناء
أشباح غناء
تتنهد في الحاكي وتدورُ كإعصارٍ
بالٍ، مصدورْ
يتنفس في كهف هارٍ
في الظلمة منذ عصور

وإذا ما استثنينا هذا المقهى بمرمى من تلك الخصوصية، واستثنينا معه مقهى قريباً منه هو مقهى «الدفاع» المقابل لوزارة الدفاع حيث كنّا نؤمه من حين لآخر لنلعب الشطرنج فيه، أو لنتحلق حول لاعبي الشطرنج المعروفين الذين كانوا من روّاده الدائمين، أقول إذا استثنينا هذين المقهيين، يمكننا أن نصنف مقاهي بغداد إلى صنفين مختلفين لحد ما هما مقاهي «الطرف» أو «المحلة» ومقاهي الشوارع الرئيسية، وتتوزع مقاهي الصنف الأوّل منها النواحي المحيطة بمركز العاصمة، وحيث تتقاسم مساحاتها المفترحة منها والمسقرفة، مصاطب خشبية تخت ـ وطاولات مستطيلة ومربعة، تتوسط ما بين تلك المصاطب ولا

* محاضرة ألقيت في ديوان الكوفة «لندن»

يتجاوز ضلع أي منها المتر الواحد، ويقتصر جمهورها على أبناء المنطقة، وجلهم من الطبقات المتوسطة أو دونها، فبيوت مثل هذه الطبقات لم تكن لتوسع أبوابها لغير الأقارب والأصدقاء الحميمين جداً، وضمن زيارات عائلية، أمّا اللقاءات الأخرى فليس لها غير المقاهي، وحيث تمتد فيها الجلسات إلى ساعات متأخرة من الليل. وقد اختلطت أصوات «النرد» و «الدومينه» بأصوات المعلقين على لعب اللاعبين، وبقهقهات الضاحكين وصخبهم، وبأصوات ملاعق الشاي في الفناجين وأحياناً بصراخ المتشاجرين والذين سرعان ما يلتف الجالسون حولهم لحل النزاع، والذي يكون عادة قد بدأ من ملاحظة عابرة حول خطأ في لعب النرد أو الدومينه، أو بأثر من طرقة قال بها أحدهم فحملها الآخر على غير محملها، أو بسبب من تعصب أحدهم للنازيين أو للإنجليز، حتى إذا نجحت الوساطة عاد الصفو إليهم وتعانقوا، واستمرّوا في الذي كانوا فيه.

ولا تشذ عن هذه الخصوصية غير بعض مقاهي «الطرف»، إمّا بسبب من أنّها صارت المقر المعروف لهذه الشخصية الأدبية أو تلك الشخصية الرياضية أو لغيرهما من أهل الفن، أو لأنّها جاورت مؤسسة معينة فلزمها العاملون فيها، أو لأنّها أصبحت ملتقى لنخبة من الأدباء الشبّان الذين لمست أسماؤهم في أواسط الأربعينات، وحيث يكون لهم أن يتحلقوا كل مساء حول إحدى تلك الطاولات الخشبية الصغيرة ليواصلوا نقاشاتهم بشأن ما قرأوا فيه وما كتبوا عنه وما وقع إليهم من أنباء فنية وأدبية عن جديد ما يحدث في أوروبا. وما ينزّ من بين ركام الحرب العالمية الثانية.

ومن تلك المقاهي، مقهى صيفي يقع على مقربة من الجسر الخشبي القديم الذي يشد ما بين منطقة «الأعظمية» ومنطقة «الكاظمية» وقد تعوّدنا أن نرى الشاعر العراقي الكبير «معروف الرصافي» يقطعه مشياً على قدميه، من الأعظمية إلى الكاظمية، ليأخذ فيه مقعده الذي سرعان مايتحلق حوله عدد من أصدقائه وبعض من أساتذة الأدب وعدد من الشعراء والأدباء الشبّان، الحاملين إليه بعض نتاجهم على أمل أن يحظوا بكلمة منه فيها، ولم يكن أمر ذلك يسيراً، فمحدثوه كثر وأهميتهم أكبر من أهميتهم، وما لديهم كثير، وهيبة الرصافي الجدية، وطبيعة جلسته وانتشار عباءته واستقرار كوفيته وعقاله على رأسه وضخامة صوته، ليس من اليسير اختراقها بالنسبة لهؤلاء الشبّان، وقد يحدث أن يتجرّأ واحد منهم فيمدّ بيد مرتجفة قصيدته إليه وهو يهمس متلعثماً وراجياً أن يقول رأيه فيها، فيأخذها منه بتثاقل، ثم يلقي بنظرة عجلى عليها ثم يعيدها إلى صاحبها من دون أي تعليق، فيكتفي الشاعر الصغير المسكين بسكوته تعليقاً عليها، ويردها إلى جيبه خجلاً ويغادر المقهى..

وإذا كان الرصافي كذلك بأثر من كبر سنه وأوجاعه وأدقاعه، فهو رغم ذلك كله وفي كثير من الأحيان على جانب كبير من الظرف وسرعة البداهة، وأذكر مرّة أنّ صبياً دلف إلى مقهاه وقد تأبّط رزمة من الأوراق، فما إن وقعت عينا الرصافي عليه وهو يتوجه إليه حتى أدار وجهه فينا وهو يقول «أعوذ بالله.. هذا هو تأبط شراً»، وكان الأمر كذلك إذ ما كاد لهذا الصبي أن يأخذ مقعده بيننا إلّا واستلّ كماً من تلك الأوراق، مستئذناً الرصافي في أن يُسمعه بعض شعره، وقبل أن يأذن له، راح صوت صاحبنا يلعلع في أرجاء المقهى بكلام لاطعم للشعر ولاللنثرفيه، فالتفت إليه متسائلاً وبكثير من الجد «أأنت وحدك كتبت هذه القصائد العصماء» فيرد عليه الصبي وقد افترشت وجهه ابتسامة فرح كبير «والله والله يا أستاذ أنا وحدي كتبتها

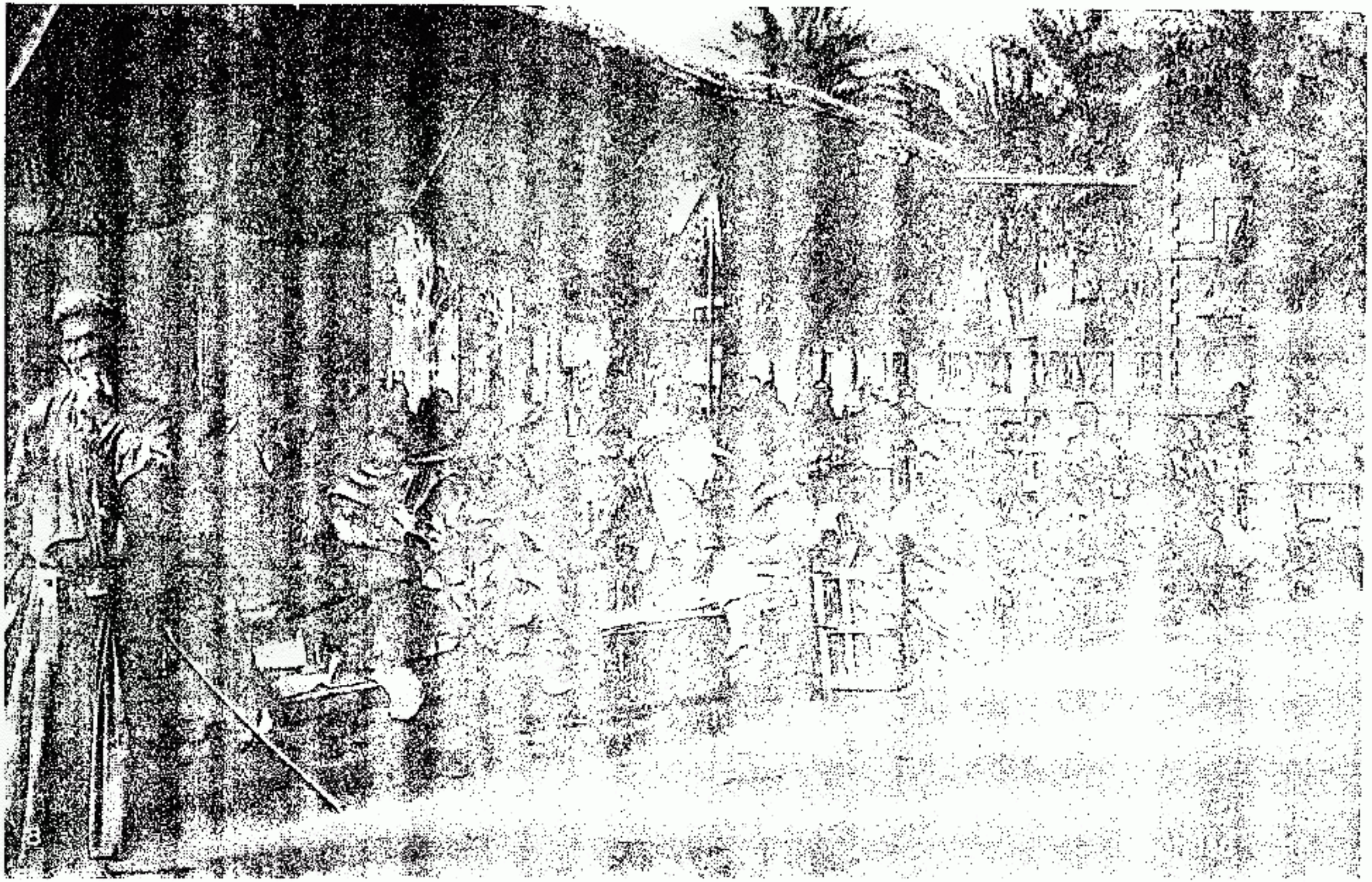

○ مقهى في بغداد اوائل العشرينات

كلها . . . كلها من بطني أنا» . فيربت الرصافي على كتف الشخص الذي كان يحاذيه وهو يقول «أكيد إنّها من بطنه . . ألم تشم رائحتها» فننفجر بالضحك دفعة واحدة وينسحب الصبي حانقاً ولاعناً .

ولم تدم لقاءاتنا به في هذا المقهى إلاّ لفترة قصيرة من الزمن ، فقد اعتلت صحته كثيراً ، وانقطع عنه وعنّا ، ثم كان إن غاب عنّا في منتصف الشهر الرابع من عام ١٩٤٥ ، فانطفأ وهج المقهى بانطفاء حياته ، وعادت ككل مقاهي «الطرف» ملتقى لأبناء الحي .

ومن نماذج هذا الصنف من المقاهي مقهى كان يجاور كلية «دار المعلمين العالية» ، ولم يكن آنذاك في بغداد غير ثلاث كليات هي كلية الطب وكلية الحقوق ، وهذه الكلية التي تعوّد طلاّبها أن يملأوا مقاعد المقهى ، ضمن حلقات صغيرة ، ليراجعوا دروسهم فيها ، وعلى الأخص في أيّام الامتحانات ، وبهذه الخصوصية تمايز بكونه مقهى هادئاً وعلى من يؤمه من غير الطلاّب أن يراعي هذه الخصوصية ، وكان روّادها من الطلبة يتناقلون فيما بينهم وبين أصدقائهم الكثير من النكات والنوادر التي كانت تُروى عن صاحب المقهى ، ربما كان اسمه «إبراهيم عرب» ، وتختلف آراء الطلبة بشأنه فمنهم من يحسبه رجلاً ملتاث العقل ، ومنهم من يعتبره رجلاً حصيفاً ، أدرك سر المهنة فجعل من نوادره سبيلاً لرواج سمعة مقهاه ولأن في غير هذه النكات والنوادر دقيق في آرائه وأحكامه . ومن درس علم النفس من هؤلاء الطلاّب ذهب في تحليله لشخصيته إلى أنّه مصاب بعقدة النقص التي أفرزت عقدة العظمة عنده ، وقد سعيت مرتين إليه بصحبة واحد من الطلبة فما حظيت بلقائه ، ومع ذلك فقد أعاد عليّ من صحبته ومن موقع المشاهدة بعض تلك النوادر ، فلكل شيء في المقهى سر عظيم ، فهذا الكلب الأجرب القابع عند باب المقهى والذي لا يقوى على الوقوف هو سبب الحرب العالمية الثانية ، ذلك لأنّ إبراهيم عرب كان قد قدمه هدية ، وهو مرغم ، إلى السفير الألماني ، وعندما سمع بذلك السفير البريطاني غضب غضباً شديداً على إبراهيم عرب لأنّه سبق له أن سأله أن يهديه إيّاه فبخل به عليه . ولم يشفع له اعتذاره للسفير البريطاني الذي أصرّ على أن يستعيده ، فما كان منه إلاّ أن استرده من السفير الألماني ، فكان أن اتصل كل منهما بدولته وتأزّمت العلاقات بين الدولتين وهكذا نشبت الحرب وإنّ الكلب لا يزال هنا . . ومن تلك النوادر أنّ الطلبة شاهدوا إبراهيم عرب ذات يوم من أيّام الصيف القائضة يدخل المقهى راكضاً وهو يلهث ويتصبب عرقاً ، فبادروه بالسؤال عن السبب ، فقال : آه لو تدرون ماذا حدث . . لقد كاد فريق الكرة العراقي أن يخسر لولا أنّه أسرع والتحق به فأنقذه من الخسارة ، وقد ضرب الآن الكرة عالياً ـ أي نجّمها كما يقول العراقيون ـ وجاء مسرعاً ليأخذ ـ استكاناً ـ من الشاي ريثما تهبط الكرة ، ثم يتركهم راكضاً أيضاً بعد أن أخذ رشفتين من الشاي ليعود إلى الملعب قبل هبوط الكرة . . وفي الباحة المفتوحة من المقهى ثمة شجرة عجفاء ، ما يكاد إبراهيم عرب يرى وجهاً غريباً يدخل المقهى حتى ينادي بأعلى صوته على صبي المقهى ليسقي الشجرة إبريقاً آخر من الشاي ، فهي تكره الماء وتحب الشاي ، ثم يلتفت إلى صبي المقهى ليطلب شهادته على صحة ما يقول والويل له إن سكت أو لم يجد له مدخلاً لقصة جديدة . . قل لهم . . قل لهم من أين جئت بهذه الشجرة يا عم إبراهيم . . فيرد عليه إبراهيم عرب : الكل يعرفون . . كلهم يعرفون ذلك . . لقد قلعتها من حديقة نوري باشا بسحبة واحدة من يدي ولم ينقطع أي جذر من جذورها . . ولكومة الحديد المرمية إلى جانب المقهى ، قصة أيضاً ، فقد كان القطار يمر يومياً مرتين بمحاذاة المقهى وعزّ على إبراهيم عرب أن يزعج القطار بصوت عجلاته

وصفيره أعزاءه الطلاّب فكان أن طلب من سائق القطار تغيير طريقه. فما امتثل لطلبه، ثم كتب لنوري باشا ـ ويقصد نوري السعيد رئيس الوزراء ـ ناصحاً إيّاه بأن يأمر بتغيير طريق القطار فلم ينتصح أيضاً، فما كان منه إلاّ أن خرج لمواجهته حتى إذا ما دنا القطار منه عاجله بركلة قوية من رجله جعلت كل قاطراته تتهشم ويدخل بعضها ببعض وهذه الكومة من الحديد الصدىء «المزنجر» هي كل بقاياه وإذا حدث لواحد من الطلاب أن ضحك، وكان في المقهى رجل غريب، امتعض إبراهيم عرب وقام ينادي بأعلى صوته على صبي المقهى ليسقي الشجرة إبريقاً آخر من الشاي، وإن لم يضحكوا لما يرويه عليهم وهم لوحدهم معه غضب عليهم لأنّهم ما عادوا يستلطفون حكاياته، أمّا أن يعلن أي واحد منهم بأنّه لا يصدق بطولاته الخارقة، فتلك هي الطامة الكبرى، فسيظل لفترة طويلة غاضباً عليه ويأمر صبي المقهى بأن لا يقدم إليه أيّة خدمة، إلى حين يتشفع له بعض الطلاّب المقرّبين إليه، فيغفر له زلّته.

وثمة مقاه، من جملة هذه المقاهي التي تقع في أطراف مدينة بغداد، ومن تلك مقهى البيروتي الذي يطل من جانب الكرخ على شاطىء «دجلة»، وجل روّاده من رجالات المنطقة المعروفين. ولنخبة من الأدباء والشعراء مكانهم المرموق فيها حيث يتصدره توفيق الفكيكي ومحمد الهاشمي وشلة من النازحين إلى الأدب القديم بمرمي في ذرابة اللسان وصناعة الكلام المسجوع والآخذين أنفسهم بالنهج التقليدي في كتابة الشعر، وممن لا يرون في الذي كنا نكتبه ونقوله غير فتنة وافدة من الغرب لتقويض التراث العربي، فما أن يطأ واحد منّا باب المقهى حتى تتوجه إليه نظراتهم الشزرة وكأنّنا دنسنا بأقدامنا مقهاهم، ولذلك آثرنا وبعد عدة زيارات لهذه المقهى أن نبحث عن غيرها، خاصة وأن يبعد بعداً شاسعاً عن أماكن سكناننا، فكان لنا أن اخترنا مقهى «الكسرة» الواقع ما بين باب المعظم والأعظمية، ملتقى لنا، نؤمه كل مساء لنتحدث عن تطلعاتنا الأدبية، وعمّا قرأنا من جديد جان بول سارتر واليوت وكامو واديث سيتول وما سمعنا من أخبار عن المدارس الفنية الأوروبية، وكان من بين من يضمهم مجلسنا الشاعران حسين مردان ورشيد ياسين والفنّانان نزار سليم وخالد الرحّال، وفي كل مساء يضاف اسم جديد إلى قائمتنا، ومنهم بدر شاكر السيّاب الذي صحبني إليه غير مرّة، إلاّ أنّه لم يأنس طويلاً لجلساتنا بسبب من وجود حسين مردان وخالد الرحال واللذين ما إن يلتقيا حتى يعلو ضجيجهما على كل أحاديث الأدب والشعر، بينما كنا نرى في شجارهما ونكاتهما ما يطرّي الجلسة..، ثم كان لنا مقهانا الخاص بنا «مقهى واق واق» والذي عرف عنه أنّه ملتقى الشعراء والأدباء والعشّاق».

يقول عدنان رؤوف. وهو واحد من أدباء جيلنا النابهين: كنا مماً نذرع شوارع بغداد من مقهى النعمان في الأعظمية إلى مقهى الدفاع حتى مقاهي شارع أبي نواس، مروراً بمحلويات الدار البيضاء بالمقهى السويسري وفي المقهى البرازيلي في شارع الرشيد، ولقد تحررت أكثر صفحات مجلتي ـ الفكر الحديث ـ و ـ الوقت الضائع ـ في تينيك المقهين وفي المطابع أكثر مما تحرّرت في المكاتب والبيوت».

وإذا ما خرجنا عن مقهى «النعمان» في الأعظمية، بصفته من بعض مقاهي «الطرف»، وقعنا إلى مقاهي شارع الرشيد ومقاهي شارع أبي نواس، ولكل من هذه المقاهي ما يميّزها عن مقاهي «الطرق» وهي بذلك تشكل الصنف الآخر من المقاهي وبأثر من ذينيك الشارعين وخصوصيتهما، فشارع الرشيد هو العمود الفقري لمدينة بغداد، وفيه تلتم عيادات الأطباء والصيدليات الكبيرة، وفيه تتوزع الفنادق بأنواعها

المتباينة، وفيه أيضاً المخازن الأنيقة، ومنه تتفرع الشوارع إلى سوق السراي وسوق الصفافير وسوق الشورجة، ولذلك فإنّ روّاد مقاهي شارع الرشيد هم في الغالب من عابري السبيل وإن لا يخلو أي مقهى من زاوية تجتمع إليها نخبة من الأدباء، أمّا شارع أبي نواس الذي يسير بمحاذاة نهر الدجلة، فمقاهيه معدّة لاستقبال المتسكعين كل مساء على شاطىء النهر والطامحين إلى أكلة سمك مسقوف، وكل منهم على كثير أمل أن يحظى بمجلس يدنيه من شاطىء النهر المنساب بكثير من البطء والتثاقل، ولم يكن غير مقهى واحد يختلف عن الباقيات بطاولتي البلياردِ اللتين فيه، وقد لازمته لفترة من الزمن ضمن شلة من الأصدقاء كان منهم الشاعران حسين مردان وكاظم جواد والفنان شاكر حسن، وقد يختلف إليها من آن لآن أصدقاء آخرون وبشكل طارىء، فنوسع الجلسة إلى ما بعد منتصف الليل حتى إذا ما باشر عمّال المقهى بغسل أرضيتها ولمّ كراسيها انصرفنا عنه لنتسكع في الشارع، وذات مرّة سهرنا على إحدى مصطبات أبي نوّاس، أنا وصديق آخر لنا وحسين مردان إلى الفجر لنتمتع بشروق الشمس على دجلة، وعندما أشرقت كنا جميعاً نائمين بعد أن استأثر كل منا بواحدة من تلك المصاطب، ولم يكن أمر ذلك غريباً عليّ أو على حسين مردان، فقد افترشناها غير مرّة وكلّما اعوزتنا الحاجة إليها بعد أن نكون قد عجزنا عن توفير أجرة الفندق الزهيدة جداً.

وتبقى لنا من مقاهي شارع الرشيد مرامي خطانا اليومية، فإنْ رغبتُ في أنْ أنفرد بالسيّاب، انتبزنا لنا مقعدين في مقهي يجاور المكتبة العامّة في باب المعظم. ليقرأ لي من جديده وأقرأ له من جديدي ونتبادل الآراء بشأنها أو بشأن ما وقعنا إليه من جديد زملائنا في تجربة الحداثة، وإن أخذت حسين مردان حماسته للمشاكسة دلفنا إلى مقهى الزهاوي للالتقاء بشاعر تقليدي كنّا ندعوه بشاعر المصايف لتأليفه ديواناً بقرابة ثمانمئة صفحة في وصف المصايف العراقية، وكلّها من الشعر التقليدي الرديء، وما إن يرانا قادمين إلى حيث هو جالس حتى يبادرنا بهز عصاه الغليظة لنبتعد عن مكان جلوسه فإن لم نمتثل له نالتنا ضربة مؤلمة على كتف واحد منّا، ولذنا بالهرب من غضب الرجل المسن وسبابه وخشية من ضربة ثانية أكثر إيلاماً.

وعلى مسافة قريبة من مقهى الزهاوي، ثمّة مقهى آخر هو مقهى «حسن عجمي». كان يرتاده أحياناً الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري، وكنّا نأنس بلقائه، وبحديثه الشيّق، ونكبره شاعراً وسياسياً وثائراً، وكان إلى جانب ذلك صاحب نكتة لا ذعة لا يرويها إلاّ وقد حمّلها معاني طالت هذا الذي إلى جانبه أو مدّت بنفسها إلى رئيس الدولة وزبانيته من المنتفعين والمتملقين، وهو معنا على مزاجين، مزاج المدافع عنّا حيناً في إنّنا نحاول شيئاً، ومزاج من يرى في بعض ما نكتبه تطرفاً لا معنى له، وتكلفاً للجدة لا جدوى منه، ويظل، في غير هذا المزاج أو ذاك، معنا في نزوعنا الثوري العارم على مختلف توجهاته. فالجواهري الفذ كان دائماً من المبشرين بالفجر الجديد وكان دائماً من بعض المكتوين باتونه.. وثمّة شعراء آخرون ممن ينظمون الشعر على النمط القديم يتحلقون حوله أو يتخذون مواقع على مقربة منه، وفي العادة أن يتوسطهم الكاتب والصحفي عبدالقادر والبرّاك مع نرجيلته التي لا تفارقه مطلقاً فهي كما يسمّيها عشيقته الأزلية.

وكان مقهى «الرشيد» سيد مقاهي شارع الرشيد ففيه يلتقي الكثيرون من رجال الفكر والأدب والسياسة، وممن يؤثرونه على غيره بأثر من مكانة روّاده وحسن فرشه إذ أنّ كل مصاطبه مفروشة بالسجاد الملوّن مما يوحي بوثرتها وبالدفء في أيّام الشتاء، وأترك للأستاذ اللغوي إبراهيم الوائلي وصف هذا المقهى

الذي كان واحداً من روّاده ومنذ بداية افتتاحه في عام ١٩٤٠ يقول الواثلي: «نحن في أوائل العقد السادس من هذا القرن والمقهى ما زال مزدحماً بالمرتادين والحاج حسين ـ صاحب المقهى ـ يجلس إلى صندوقه عند الباب، والكهل الطيب «وهل» يفترش الرصيف قرب باب المقهى وقد نشر الصحف والمجلّات وهو في كل صباح ومساء يطوف داخل المقهى ويوزع الصحف على الراغبين في قراءتها ويأخذ من كل واحد أجراً لا يتجاوز عشرة فلوس.

انتقل بعضهم إلى مقاه أُخر وبقي رواد الشطرنج والنرد والنرجيلة وأصدقاء ما زالوا يبتردون صيفاً أو يستدفئون شتاء في أوقات الراحة ومنهم خاشع الراوي وفؤاد عبّاس والمحامي محمد نجيب الجبوري وعبدالقادر رشيد الناصري وهؤلاء الأدباء والشعراء ودعوا الدنيا إلى ظلام القبور..

والشاعر بلند الحيدري يسلم ويجلس وهو يمزج الضحكة الخفيفة بالانفعال والتذمر من فراغ الجيب ولكنّه لا ينسى الحديث في الشعر واللغة ولعلّه كان يوافقني في الرأي.. أنّ الشاعر بلا لغة كالجندي بلا سلاح، وكثيراً ما يدخل الشاب النحيل بدر شاكر السيّاب وهو يتهادى في مشيته ويتأبّط كتاباً فيجلس ويشارك في الحديث.. وفي مقعد قريب يجلس الشاعر حسين مردان والسيجارة لا تفارق شفتيه وأحاديثه في الشعر والنقد» ويضيف في حديث ذكرياته الذي نشرته له جريدة «الثورة» العراقية في الخامس من شهر شباط ١٩٨٧، قوله: «وفي نهاية المطاف مررت مجتازاً بباب المقهى فإذا شخص يسرع إلى الخارج ويدعوني إلى الجلوس أنّه الصديق الراحل المحامي محمود العبطة فلم يكن بد من الاستجابة لدعوته، ولقد كانت الزيارة هي زيارة الوداع للصديق العبطة وللمقهى الذي كان يصارع القدر في ساعة احتضاره.. لقد انتهى بانتهاء مقهى الرشيد ناد من أضخم النوادي الأدبية في بغداد».

ويصير للحداثة أيضاً مقاهيها، فها هما مقهيان جديدان يتوجان مقاهي شاعر الرشيد، ويخرجان بنا من تلك المقاهي التقليدية ومن أجواء النرد والدومنه والنراجيل والمصاطب الخشبية والموسيقى والأغاني العربية إلى حيث الكراسي الوثيرة والموسيقى الكلاسيكية الغربية، وإن كنا لم ننقطع كلياً عن مقهى الرشيد خاصة، كان اسم الأوّل منهما «المقهى السويسري» والثاني اسم «المقهى البرازيلي» وكان أحدهما يجاور الآخر وقد كان «المقهى السويسري» ملتقانا المفضل والذي أعطيناه الكثير من خصوصيتنا، فالموسيقى الكلاسيكية تستوجب حسن الإصغاء وعلى الأحاسيس أن تدور بخفوت كلي وعلينا أن نبحث من خلال هذه اللقاءات عن أنفسنا في الجديد الذي يفردنا بما نتمايز به.

يقول شاكر حسن آل سعيد في كتابه «فصول عن الحركة التشكيلية العراق» الذي صدر مؤخراً: «.. وقد صادف في نفس الفترة، أي عام ١٩٤٥ اتفاق جماعة من الأصدقاء جلّهم من شباب الفنّانين والأدباء على تأليف رابطة تجمعهم سمّوها جماعة ـ الوقت الضائع ـ وهؤلاء الشعراء هم: بلند الحيدري، نزار سليم، سليمان محمود حلمي وحسين هدوي وإبراهيم اليتيم، ثم انضم إليهم أيضاً عدنان رؤوف وحسين مردان وإبراهيم أبو الفتوح وكان هذا الأخير مدرساً مصرياً انتدب للتدريس في إحدى كليات بغداد وكذلك فؤاد رضا وأكرم الوتري.. اتخذت جماعة الوقت الضائع أوّل الأمر مقهى «كافيه سويس» في شارع الرشيد مقراً لهم يلتقون فيه للنقاش وقضاء الوقت.. وقد استطاعت أن تنشر عدة مطبوعات مثل ديوان خفقه الطين للشاعر بلند الحيدري عام ١٩٤٦ ومجموعة أقاصيص بعنوان ـ أشياء تافهة ـ لنزار سليم كما

أصدروا نشرة بنفس اسم الجماعة ظهر منها عددان».

ومن خلال تلك النقاشات الطويلة ومن خلال ما كنّا نسمع من أهالينا بأنّ الفن والأدب مضيعتان للوقت ومن خلال سماع أحدنا برواية مارسيل بروست «البحث عن الوقت الضائع» وحماسة نجيب المانع الطاغية ولدت فكرة إصدار نشرة باسم «الوقت الضائع» لنقول فيها كل ما هو غير مألوف في الصحافة العراقية آنذاك، ولنعلن عن سعر لها غير مقبول نهائياً. أن نبيعها بخمسين فلساً وهو ثمن باهظ لنشرة بثماني صفحات، وضمن مدارس الطلبة الثانويين وأروقة الكليات رحنا نوزع العدد الأوّل، وسرعان ما عمّ لها صدى واسع حفزنا لإصدار العدد الثاني، وأحسسنا بكبر تحدينا كلما وقعت أعيننا على كتابة طبشورية في هذا الحائط أو ذاك تندد بنا وتشوّه مقاصدنا وتدعو الناس لمقاطعة «الوقت الضائع» فإضاعة للوقت قراءة الوقت الضائع»، وصعب على هؤلاء الشبّان أن يوّفروا المال للاستمرار بها فانقطعت عن الصدور. . كان نزار سليم يقوم بتصميمها وحفر كلائشها، وحسين هداوي يكتب لها ويترجم بالاشتراك مع سلمان محمود حلمي وإبراهيم أبو الفتوح، وكتبنا رسائلنا لغير واحد من أدباء العالم فلم يلبِّ دعوتنا إلاّ الكاتب الأمريكي وليم سارويان الذي بعث لنا بإقصوصة صغيرة بعنوان «موزلة أن تموت ولا تدفن إذ لا يزالُ بإمكانك أن تسير»، ويكتب لنا الرّسام البريطاني «كنت وود» من انطباعاته الفنية، ويكتب لنا سعيد علي مظلوم عن السيمفونية الحزينة لتشايكوفسكي ويكتب لنا جواد سليم، ويكتب إبراهيم اليتيم عن رجل «وضع قدميه في جيبه وسار»، وكنّا نراجع كل ما يبعث إلينا في «المقهى السويسري» ثم أتكفل بأن أحمل ما اعتمدنا نشره إلى مطبعة الزمان، وتصحيح مسوداته. . كل ذلك كان يجري بكثير من الجدية والدأب ونحن نحلم بأن يتعقبنا المجد الهائل في كل مكان من بغداد، وقد تحدّث في بعض الأحيان طرائف نظل نتندر بها من آن لآخر، ومن تلك أنّ شاعراً معروفاً بشاعريته التقليدية زارنا مرّة ليلتقي بحسين مردان الذي انزوى به في إحدى زوايا مقهانا ولم يدم لقاؤهما إلاّ لدقائق معدودة، ثم عاد إلينا حسين وهو يضحك ويقول لقد: «دبّرنا فلوس اليوم»، ونسأله عن الخبر العظيم ونعلم بأنّ الصديق الشاعر شكا لحسين سوء وضعه المالي وأنّه بحاجة ماسة لمن يقترضه أي مبلغ ومهما كان صغيراً أو كبيراً ويطلب إليه أن يستدينه من أي واحد منّا، فيرد حسين عليه باستحالة فالجماعة أشدّ إفلاساً منه ولكنّه مستعد لأنْ يبيع له اسم شخص كريم لن يردّه خائباً مطلقاً إذ تكفّل بأن يعطيه عشرة بالمئة مما سيأخذه منه ويهمس في أذنه اسم «ناظم رمزي». . إنّه كريم جداً فاذهب إليه واطلب منه عشرة دنانير. . أجل عشرة دنانير وأنا سأنتظرك هنا. . لا تتأخر لا تتأخر ولا تخجل، وبعد قرابة ساعة يعود الشاعر هاشاً باشاً يعانق حسين مردان ويمدّ يده إليه بنصف دينار. فقد خجل أن يطلب من ناظم رمزي أكثر من خمسة دنانير، يتسلمه بصمت، وكما لو أنّه يقوم ليقضي حاجة، يذهب إلى الجرة الخلفية من المقهى ويتلفن لرمزي سائلاً عن المبلغ الذي أعطاه لشاعرنا. . المبلغ عشرة دنانير، وما يكاد يغلق سماعة التليفون حتى يعود إليه، سباباً، لاعناً: أنت كذّاب. . دجّال هات. . هات. . نصف دينار آخر، وبكثير من الخجل يعطيه ما يريد ويخرج بسرعة من المقهى.

ومرّة أخرى نمدّ بأيدينا إلى جيوبنا الخاوية، ويمد نزار سليم يده إلى صندوق جمعية «حماية الأطفال» حيث كان يعمل أميناً عليه، ليقترض منه مبلغاً من المال يسد حاجته وبعض حاجتنا لإقامة مقهى لنا، مقهى خاصاً بنا وسنتحكم نحن بروّاده، فقد سئمنا مقاهي الآخرين، ولعلّها المرّة الأولى في التاريخ يقوم

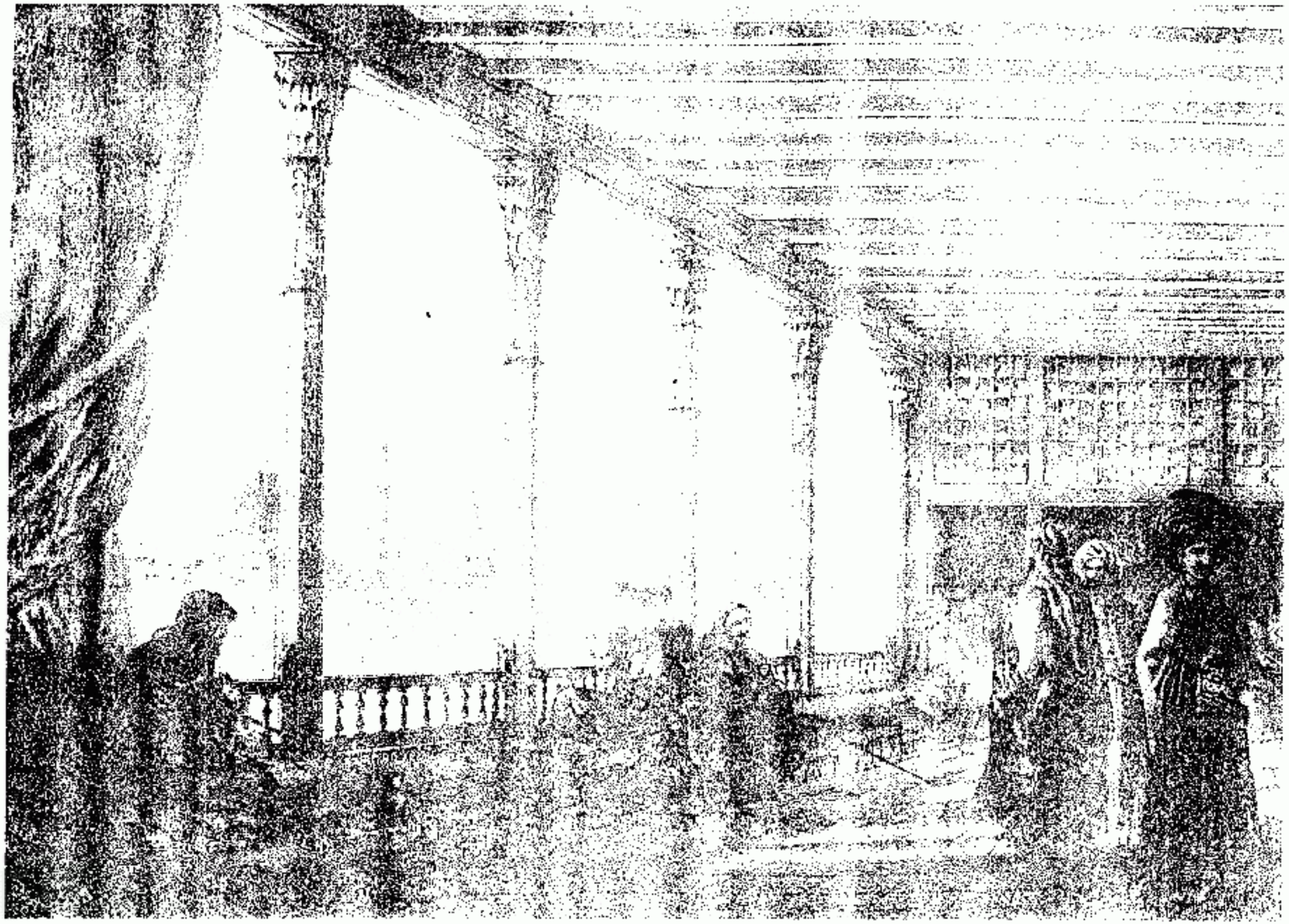

○ مقهى في بغداد القديمة (الموسرا)

فيها رهط من الأدباء على فتحى مقهى، وعهدنا لطباخ كان يعمل في دارنا، للإشراف عليه وإعداد الطعام لمن يرغب في العشاء فالمقهى مسائي، وجمعنا من بيوتنا بعض أثاثه، واشترينا البعض الآخر، ودفعنا مقدماً أجرة شهرين، وخطّ نزار لوحته، وعلّقنا عدداً من الصور الفنّية في أرجائه، ويقع المقهى قبالة «النادي الأولمبي» أمّا الغرفة الكائنة في سطح المقهى فقد أفردت لحسين مردان، ولم تتسع الدنيا كلّها لفرحه يوم أن أعلمناه بذلك، فلن يحاربعد اليوم في البحث عن مرقد له في هذا المقهى أو ذاك أو تحت الجسر أو على مصاطب شارع أبي. . إنّها غرفته وفيها سرير له وكرسي وطاولة، وسيستطيع أن يضع ديوانه المخطوط في ركن منها بدلاً من أن يحمله صباح مساء تحت إبطه وسيستطيع أن يخرج دون عصاه أيضاً، وسيكون أن نجتمع فيها في آخر كل ليلة لمراجعة حساب الأرباح والخسارة.

ولم يعمر المقهى أكثر مما عمرت مجلة «الوقت الضائع» فثمّة شبّان من أهل اليسار وضعوه في موضع الشبهة والتهمة، وكيف لا. . والعراق آنذاك يغلي بالأحداث السياسية، بينما يجتمع في هذا المقهى كل من يبشر بالأفكار الأوروبية المستوردة، ولذلك قرّروا التنديد به، وإنّ بعضهم كان يمر بالمقهى بسيّارات جيب مفتوحة ليسبونا بأقذع أنواع السباب، ولم يتوان بعضهم الآخر من رمينا بحصى صغيرة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فبعد فترة وجيزة من تاريخ افتتاحه أخذت وجوه غير مألوفة تؤم المقهى، يدخلونه سوية ثم يتوزعون على عدد من أركانه، فأدركنا بسرعة بأنّهم من رجال الشرطة والأمن وإنّهم مكلفون بإعداد تقارير يومية عن نشاط المقهى وعن روّاده وعن أحاديثهم، وكان أكثر ما يلفت نظرهم هو ورود الأسماء الأجنبية في أحاديثنا: سريالية ـ وأدائية ـ تشايكوفسكي ـ بيكاسو ـ اليوت. . إلخ، وسعيت إلى أحد أقاربي ممن يعملون في دائرة الأمن العام لاستجلاء الوضع منه، فوعدني أن يرد عليّ بعد عدّة أيّام، ولم يمضِ غير يوم واحد حتى زارنا هو بنفسه للمقهى وأعلمنا بأنّ التقارير تقول بأنّكم مجموعة خلايا يسارية وإنّكم تتحدثون بكلمات تثير الريبة. . وإنّ لديكم غرفة في السطح تمارسون فيها أشياء مريبة ونصيحتي أن تغلقوه خشية أن يصار إلى توقيفكم جميعاً. . قلنا له إنّ هذه اتهامات فاليساريون يتهموننا بالوجودية وبالعبث والحكومة تتهمنا باليسار. لن نغلق المقهى. .

وشاع الخبر بين روّاد المقهى، فآمنوا السلامة وهكذا بدأ عددهم يقل يوماً بعد يوم، وفي الأسبوع الأخير من عمره كنّا نجلس فيه نحن الأربعة أو الخمسة ومعنا مايمائل عددنا من الشرطة السرية والذين يأكلون ويشربون البوارد على حسابنا.

ثم مات مقهانا ولم يقم له أي بديل إلى يومنا هذا. . يقول برنارد شو إنّ الناس صنفان: المعقولون وهم الذين يحاولون دائماً أن ينسجموا مع الواقع المحيط بهم. . وغير المعقولين وهم الذين يريدون أن ينسجم الواقع معهم. . ويبدو أنّ المثقفين في الوطن العربي صاروا من الصنف الأوّل. . وربّما أكثر مما يجب بحيث لم يعد لنا معهم كثير جدوى في تغيير أو تطوير. . أو حتى في حلم لتطوير أو تغيير. . كما كان لنا نحن أبناء شعر الأربعينات وفن الأربعينات ومعمار الأربعينات.